ابن غنام مؤرخًا

للدكتور: عبدالله بن صالح العثيمين(١)

أما الكتابة التاريخية لدى النجديين فلم تحدث إلا في القرن الحادي عشر الهجري، وكان أول مؤرخ نجدي: الشيخ أحمد بن محمد البسام «الوهبي التميمي» المتوفى سنة ١٠٤٠هـ، ومن الجدير بالذكر أن أكثر من نصف علماء نجد من القرن العاشر إلى منتصف القرن الثاني عشر قد وُلدوا في أشيقر وتعلموا فيها، وأن بعضًا من غير المولودين فيها قد وفدوا إليها لتلقي العلم على مشايخها، وأن أكثر من نصف العلماء النجديين في الفترة المذكورة ينتمون إلى آل وهبة، وهو فرع آل مشرف أسرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وهذا يدل على أن بلدة أشيقر كانت حينذاك مركزًا علميًا في منطقة نجد، وأن آل وهبة، بصفة عامة، وآل مشرف بصفة خاصة، قد احتلوا مركز الصدارة العلمية في هذه المنطقة.

إن ما كتبه أحمد بن بسام كان تقييدات مختصرة جدًا لحوادث وقعت في نجد بين عامي ١٠١٥ و ١٠٣٩هـ، وبعض هذه التقييدات تبدو وكأن المراد بها ذكر تاريخ الحادثة فقط لمن يعرف الحادثة ذاتها ولا ينقصه إلا معرفة زمن حدوثها، مثل أن يقول: في سنة كذا ذبحة آل فلان، دون ذكر من قتلهم، أو سبب القتل أو مكانه، وكان الشيخ أحمد المنقور المتوفى سنة ١١٢٥هـ ممن أفاد من تقييدات البسام، وأضاف إليها تقييدات أخرى لحوادث لاحقة.

---

(١) نُشر على أربع حلقات في جريدة «الجزيرة»، بتاريخ (٥ / ٥ / ١٤٢٣هـ، و١٢ / ٥ / ١٤٢٣هـ، و ١٩ / ٥ / ١٤٢٣هـ، و٢٦ / ٥ / ١٤٢٣هـ). ثم نشره في كتابه «مراجعات في مصادر التاريخ السعودي» (ص ٣١ - ٥٨). وأنقله بتصرف يسير.

ولقد فصّل أكثر الحوادث التي أشارت إليها التقييدات المذكورة مؤرخان نجديان فيما بعد، وهما عثمان بن بشر ومحمد الفاخري، اللذان عاشا في القرن الثالث عشر الهجري، بل إن المؤرخ النسابة إبراهيم بن عيسى المتوفى سنة ١٣٤٣هـ ألف نبذة صدرت بعنوان: «تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد»، مبتدئًا بسنة ٧٠٠هـ، ومنتهيًا بسنة ١٣٤٠هـ، غير أن الحوادث التي أشار إليها غير متوالية. وعاصر ابن عيسى مؤرخٌ آخر؛ هو عبدالله بن محمد البسام، المتوفى سنة ١٣٤٦هـ، مؤلف «تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق»، وقد بدأ تاريخه بتمهيد أشار فيه إلى وقائع مهمة على امتداد التاريخ، ثم بدأ المراد من تأليفه بذكر ما حدث عام ٨٥٠هـ، وهو العام الذي بدأ فيه ابن بشر والفاخري تاريخيهما، واستمر في ذكر الأحداث إلى سنة وفاته، وفي تاريخه ذكر لحوادث نزاع بين القبائل في نجد وما يليها شرقًا وشمالًا، لم تذكرها المصادر المتوافرة، ولم يعزها إلى أي مصدر.

على أن النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري شهد - كما هو معروف- ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التي غيرت وضع منطقة نجد، دينيًا وسياسيًا. فلقد تبنى آل سعود أمراء الدرعية تلك الدعوة، التي أصبح التوحيد ببعديه الديني والسياسي قضيتها الجوهرية، وقد انبرى من لديهم القدرة على الكتابة التاريخية لتسجيل تاريخ تلك الدعوة وتفصيلات حياة صاحبها، وتدوين ما قام به أنصارها من جهود لنشرها، وتوحيد سكان المنطقة تحت راية ما نادت به.

وكان ممن كتب عن أولئك الأنصار - كما ذكر ابن بشر-: محمد بن علي ابن سلوم، الذي وُلد في العطار بسدير سنة ١١٦١هـ، ولأنه كان من المعارضين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ارتحل من نجد إلى الأحساء، حيث درس

على الشيخ عبدالله بن فيروز[١]، الذي كان هو الآخر معارضًا للدعوة السلفية، ولما أوشكت الأحساء أن تقع في أيدي آل سعود مع بداية القرن الثالث عشر الهجري، رحل الاثنان منها إلى البصرة، ثم توفي ابن سلوم في سوق الشيوخ عام ١٢٤٦هـ، على أن ما كتبه ابن سلوم ما زال مفقودًا، ومعرفة الباحثين بمضمونه معتمدة على ما ذكره عنه ابن بشر، إذ قال[٢]: «إلا أني وجدتُ لمحمد بن علي بن سلوم الفَرَضي الحنبلي إشارات لطيفة في تتابع السنين، ورسم وقائع كل سنة بما لا يفيد، ولا حقق تحقيقًا للوقائع ومواضعها ينتفع به المستفيد، بلغ في ترسيماته إلى قرب موت عبدالعزيزبن محمد بن سعود».

وتقليل ابن بشر رحمه الله لأهمية ما قام به ابن سلوم ليس أشد إيلامًا من تقليله لأهمية ما قام به العالم المؤرخ حسين بن غنام، فمع أنه - أي ابن بشر - قد نقل عن ابن غنام نقلًا واضحًا حرفيًا حينًا، ومضمونًا حينًا آخر، فإنه لم يذكر لمن نقل عنه تاريخًا، بل إنه بعد أن ذكر ما ذكر عن ابن سلوم قال: «ثم وجدت ترسيمات لغيره، أحسن من رسمه، متصلة به»، ولم يذكر اسم صاحب هذه الترسيمات، وإن كان يتضح من المقارنة أنه قصد ابن غنام.

ولد حسين بن أبي بكر بن غنام المنتمي إلى قبيلة تميم في بلدة المبرّز بمنطقة الأحساء، التي كانت مركزًا من مراكز العلم في الجزيرة العربية، وقد برز من أسرته التي كانت - على الأرجح - مالكية المذهب، عدد من العلماء، فنشأ الفتى في ذلك المناخ العلمي، الذي واكب إمكاناته الذاتية؛ فأصبح عالم شريعة وأستاذ لغة وناظم شعر، ولعل خير شاهد على مستواه الشعري: تلك القصيدة التي مدح بها الشيخ عبدالله بن أحمد آل عبدالقادر، والتي استهلها- مثل عادة

(١) الصواب: محمد بن فيروز. انظر: «السحب الوابلة» (٣/ ١٠٠٨).
(٢) (١ / ١٦).

كثير من شعراء عصره بنسيب ورد فيه:

هل الفجرُ إلا ما بدا من جبينها　　أو الوردُ إلا ما جلاه احمرارها
أو الليلُ إلا من معسعس شعرها　　أو الخمرُ إلا ظلها لا عُقارها
أو السهمُ إلا ما تريش جفونها　　أو البِيضُ إلا لحظها لا غِرارها
مهاة تريك الشمس طلعة وجهها　　إذا أسفرت يجلو الظلامَ نهارُها

وقصيدته التي هنأ بها الكريم أحمد بن رزق على زواجه عام ١١٨٩هـ، وقد استهلها بقوله:

أدر كؤوسًا من سُلاف المدام　　ولا تُكدّرها بفرط الملام
فقد أتى القصد وحق المنى　　والدهر قد زان وحان المرام
والوقت صافٍ والصّبا برده　　ضاف وقد عاج وماج الغرام
وطابت النفس ورق الهوى　　وقر بالعين لذيذ المنام

كانت تلك مؤهلات الشيخ حسين بن غنام في مطلع القرن الثالث عشر الهجري، وكانت الدولة السعودية الأولى حينذاك قد أكملت توحيد منطقة نجد، وبدأت محاولاتها لانتزاع منطقة الأحساء من قادة بني خالد، الذين سبق أن ناصبوها العداء، وقاموا بغزوات متعددة ضدها، وكان نجاحها قد جعل من قاعدتها الدرعية محط أنظار طلاب العلم في المنطقة؛ وبخاصة أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان ما يزال على قيد الحياة، وأن أعدادًا ممن تخرجوا على يديه - وفي طليعتهم أبناؤه قد أصبح لهم تلاميذ كثيرون، ومع أن الكتابات التي دونها الشيخ وتلاميذه توضح أنهم كانوا على مستوى جيد بمعرفة قواعد اللغة العربية، فإن التزود من هذه القواعد كان أمرًا مطلوبًا، ولذلك لم يكن غريبًا أن يُدعى غنام إلى الدرعية ليقيم فيها، وينتفع الطلاب بما لديه من معرفة لغوية، ولم يكن غريبًا أيضًا أن يكون ذلك اللغوي ممن تطلعوا إلى العمل في الدرعية بعد أن

احتلت ما احتلت من مكانة رفيعة، وشهدت ما شهدت من تطور كبير؛ وبخاصة أن كتاباته في غير مجال التاريخ؛ مثل «العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين» توضح أنه مقتنع بالطرح السلفي الذي طرحه الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأنصاره، ولقد بقي ابن غنام في العاصمة السعودية، الدرعية، حتى وفاته سنة ١٢٢٥هـ، على أنه ليس من المؤكد متى قدم إليها؛ أكان ذلك في أثناء حياة الشيخ محمد المتوفى سنة ١٢٠٦هـ؟ أم بعد أن دخلت منطقة الأحساء تحت الحكم السعودي عام ١٢٠٨هـ؟ فالقرائن التي توحي بأن قدومه كان في أثناء حياة الشيخ تكاد تتساوى، من حيث القوة، مع القرائن التي توحي بأن ذلك القدوم كان بعد وفاته.

لقد أشار ابن غنام في مقدمة تاريخه إلى أنه أراد أن يكتب عن الغزوات التي قام بها أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومع أنه استصعب ذلك؛ وبخاصة أنه كان مغتربًا عن وطنه - كما قال - «إلا أن داعي النفس لذلك كان كثير، والإمام - أيده الله تعالى- يعزم عليَّ في ذلك ويشير»، فشرع في كتابته.

وعبارة «أيده الله تعالى»: تقال عادة دعاء للحاكم السياسي، وقد عاصر ابن غنام في الدرعية حاكمين من آل سعود؛ هما: عبدالعزيز بن محمد، وسعود بن عبدالعزيز، على أنه تناول تاريخ مؤسس الدولة السعودية الأولى محمد بن سعود، والموجود من تاريخه لم يصل إلى حكم سعود بن عبدالعزيز.

والمتأمل في تاريخ ابن غنام يجد أنه كان إذا تحدث عن محمد بن سعود، المتوفى سنة ١١٧٩هـ سماه الأمير؛ وذلك من بداية حديثه عنه سنة ١١٥٧هـ، إلى سنة ١١٧٨هـ، غير أنه ورد في قصيدة له عن فشل حملة زعيم بني خالد، عريعر ابن دجين، في السنة الأخيرة قوله:

بحكم إمام المسلمين وعدله   تُحاط نواحيها ويُحمى عرينها

وهذه هي الإشارة الوحيدة إلى محمد بن سعود بأنه إمام المسلمين. أما حديث ابن غنام عن عبدالعزيز بن محمد فمختلف، كان يسميه - في أغلب الأحيان- «عبدالعزيز» فقط، بدون لقب، لكنه في حالات قليلة ذكر ما يثير سؤالًا حول اللقب الذي أراده له؛ فعند ذكره لوفاة محمد بن سعود، سنة ١١٧٩هـ قال[١]: «وفيها بايع عبدالعزيز أهلُ الإسلام، وأعطوه على الإمامة عقد الأحكام»، وفي كلامه عن حوادث سنة ١١٩٠هـ قال[٢]: «لما غدر زيد بن زامل، أمير الدلم بالعهد.. وبلغ ذلك على الجزم واليقين، عبدالعزيز إمام المسلمين، أمر بغزوه»، وفي كلامه عن الحوادث التي جرت في جنوبي نجد سنة ١٢٠٢هـ قال[٣]: «ثم بعد ذلك بأيام قدموا على عبدالعزيز الإمام، فأكرمهم.. غاية الإكرام»، لكنه قال[٤] في سنة ١٢٠٢هـ، أي في السنة السابقة نفسها: «أمر الشيخ محمد بن عبدالوهاب المسلمين أن يبايعوا سعودًا على الإمارة بعد أبيه»، وفي كلامه عن أحداث عام ١٢٠٥هـ قال[٥]: «وفي أثناء تلك الليالي والأيام، أمر عبدالعزيز الإمام، أهل الإيمان والإسلام»، وفي كلامه عن أحداث سنة ١٢١٠هـ قال[٦]: «وفيها؛ وبراك (بن عبدالمحسن) وأهل الحسا من تحت إمام المسلمين، لمعت للفتنة بوارق»، ثم قال[٧]: «فلما تحقق عبدالعزيز الإمام، عن ثويني بصحيح الكلام..»، ثم قال[٨]: إن براك (بن عبدالمحسن)

(١) (٢/ ٧٤).
(٢) (٢/ ٩٥).
(٣) (٢/ ١٣٣).
(٤) (٢/ ١٣).
(٥) (٢/ ١٤٨).
(٦) (٢ / ١٧٤).
(٧) (٢/ ١٩٣).
(٨) (٢ / ١٩٧).

«قد أرسل إلى عبدالعزيز الإمام، حدود مسيره إلى الشمال تلك الأيام»، وقال[١]: «فلما عرف إمام أهل الإيمان، ما قصده ذلك الإنسان»، لكنه مع كل ذلك قال عنه - فيما بعد-[٢]: «ولما أتى الخبر عبدالعزيز»، دون وصف أو لقب.

ويتضح مما سبق أن بين تسمية ابن غنام عبدالعزيز بن محمد بالإمام أحيانًا، وبين السجع - الذي كان المؤلف مغرمًا به - صلة وأي صلة. وهكذا يتضح أن ابن غنام لم يتخذ موقفًا معينًا من تسمية عبدالعزيز.

ولقد ذكر ابن غنام في مقدمة تاريخه أنه سمَّاه «روضة الأفكار والأفهام، لمرتاد حال الإمام، وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، ولم يتحدث فيه عن حال أحد سوى الشيخ محمد بن عبدالوهاب، الذي فصّل الكلام عن حياته تفصيلًا جيدًا، ومعنى ذلك أن المقصود بكلمة «الإمام»: الشيخ محمد نفسه، ومع أنه كان إذا تحدث عنه وصفه بالشيخ، في أغلب الأحيان، فإنه وصفه في مقدمة كتابه بقوله[٣]: «إمام الموحدين»، كما وصفه فيها بقوله[٤]: «فانتظم في سلك الإمام (يعني الشيخ) رجال»، ووصفه عند حديثه عن لجوء سعود بن عريعر إلى الدرعية سنة ١٢٠٠هـ[٥] بالإمام، وعندما رثاه سنة ١٢٠٦هـ قال عنه[٦]:

إمامٌ أصيبَ الناس طرًا بفقده   وطاف بهم خطبٌ من البين موجع

وقد يسأل سائل عن الهدف من الاستطراد في هذه المسألة؟ والجواب هو أنه إذا ترجّح أن ابن غنام كان يقصد بالإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عندما

---

(١) (٢/ ٢٠٠).
(٢) (٢ / ٢٤٦).
(٣) (ص ٣).
(٤) (ص ٢٩).
(٥) (٢ / ١٢٥).
(٦) (٢/ ١٥٥).

قال في مقدمته: «والإمام يعزم عليّ»؛ فإن ذلك يعني أنه قدم إلى الدرعية قبل وفاة الشيخ، وقبل أن تدخل منطقة الأحساء تحت الحكم السعودي، أما إذا ترجّح أنه كان يقصد بالإمام: الحاكم السعودي - وعبارة «أيده الله تعالى»: ترجح ذلك -؛ فإن ذلك لا يدل على قدومه إلى الدرعية والشيخ محمد ما زال على قيد الحياة.

على أنه ورد في أحد المصادر المخطوطة أن الشيخ عبدالله الكردي أرسل من البحرين سنة ١٢٠٩هـ أبياتًا إلى ابن غنام، الذي كان حينذاك قد أتى إلى الزبارة، فأجابه بقصيدة ضمّنها مدحًا للكريم أحمد بن رزق، كما مدح هذه الكريم بقصيدة أخرى في السنة نفسها، وكونه في الزبارة تلك السنة؛ مادحًا لذلك الرجل الكريم، قد يرجح أنه لم ينتقل بعدُ إلى الدرعية؛ ذلك أن ذهابه من هذه المدينة - بما لقيادتها حينذاك من ثقل سياسي- إلى الزبارة ليمدح رجلًا من غير أفراد تلك القيادة أمرٌ مرجوح.

على أن المصادر تذكر أنه كان من بين الذين درسوا عليه قواعد اللغة العربية في الدرعية: الشيخ حمد بن ناصر بن معمر، الذي لازم الشيخ محمد بن عبدالوهاب ورأس وفدًا من العلماء إلى مكة سنة ١٢١١هـ لمناظرة علمائها، ثم أصبح رئيسًا لقضاة مكة من سنة ١٢٢١هـ إلى وفاته سنة ١٢٢٥هـ، فرئاسته لوفد من العلماء سنة ١٢١١هـ يرجح أن دراسته القواعد على ابن غنام كانت قبل ذلك ربما بسنوات عدة.

وسواءً كان قدوم ابن غنام إلى الدرعية قبل وفاة الشيخ محمد بن عبدالوهاب أو بعد وفاته؛ فإنه أصبح أستاذًا لعدد ممن أصبحوا بين علمائها البارزين.

لعل أول نقطة يحسن أن يُشار إليها في الحديث عن هذا التاريخ هي الهدف من كتابته، وإذا اعتُمد - في هذا الأمر- على ما كتبه هذا المؤرخ نفسه في

مقدمته؛ فإن من الواضح أن كتابته له كانت ذاتية ابتداء، ثم بتشجيع ممن كان يُكن له التقدير انتهاء.

استهل ابن غنام ما كتبه بحمد الله والصلاة على نبيه محمد ﷺ، والإشارة باختصار إلى رسالة التوحيد التي جاء بها، وما طرأ على عقائد بعض المسلمين من انحراف، ثم قال بأسلوبه المسجوع، الذي سيأتي الحديث عنه: «لما كانت منزلة العلم أعظم المنازل، والتحلي بحلاه من أفخم الفضائل، لاسيما للأفاضل والأماثل، ومرتبته أرفع المراتب عند الأواخر والأوائل.. وكان من أسناها شأنًا وفخرًا، وأسماها رتبة وذكرًا، وأرفعها منصبًا وقدرًا، وأنفعها عند الله تقربًا وحضورًا؛ علم الحديث والأثر، ومعرفة التواريخ والسير، كما نص عليه أرباب الفن والنظر، إذ فيه لمقتفيه عبرة من أجل العبر، تزيد اللبيب تحقيقًا وتبصيرًا، ونشره في المجالس والمحافل، ودرسه في البُكَر والأصائل، وسيلة من أنفع الوسائل، إلى التأسي بالمجاهدين، فينال مع الأجر قبولًا وتوقيرًا، فيقتفي السامع آثارهم، إذا سبر أخبارهم، وعرف أنهم بذلوا - رغبة فيما عند الله أعمارهم، فبشرهم بنعمته وفضله تبشيرًا، أردت أن أصنف فيما أشرق ضياؤه وانتشر، وشاع في غالب الأقطار واشتهر، من الغزوات التي هي في محيا الدهر كالغُرر، والفتوحات الإسلامية التي مبدأها العقد السادس من القرن الثاني عشر».

وهكذا يتضح - وفقًا لكلام ابن غنام نفسه - أنه ألف تاريخه بدافع ذاتي منه، لُحمته وسُداه إدراكه لمنزلة التاريخ الرفيعة بين العلوم؛ لما ينتج عن قراءته من فوائد، في طليعتها تأسي الخلف بالسلف، ولما يناله من قام بكتابته من أجر وثواب عند الله. ولقد أوضح إدراكه لخطورة الإقدام على كتابة التاريخ، وصعوبة ظروفه وهو في دار غربة، أي لم يكن في مسقط رأسه، لكنه - مع ذلك

- بيّن أن عاملين أثرا عليه، أو ساعداه في التغلب على شعوره بخطورة الكتابة وصعوبة ظروفه، وأول العاملَين: رغبته الملحة في الكتابة، ثانيهما: حفزه عليها من قِبل من كان يقدره غاية التقدير، وقد عبر عن هذين العاملين بقوله: «لكن داعي النفس لذلك (أي الكتابة) كثير، والإمام - أيده الله تعالى- يعزم عليّ في ذلك ويشير».

وإذا كان الكلام السابق يوحي بالهدف من الكتابة، ويبين عاملي السلب وعاملي الإيجاب في القيام بها، فما الموضوع المستهدف من الكتابة؟

لقد ورد في الكلام السابق المقتبس من مقدمة ابن غنام لتاريخه أنه صنفه لتسجيل الغزوات التي قام بها أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - بقيادة آل سعود-، ابتداءً من العقد السادس من القرن الثاني عشر، وهذا يفيد بأن المستهدف من الكتابة تسجيل الأعمال العسكرية، أو ما سمها الغزوات التي قام بها أولئك الأنصار.

وإذا توسع في المدلول فإنه قد يشمل الظروف السياسية التي واكبتها، على أنه ذكر في المقدمة - أيضًا - أنه سمى تاريخه: «روضة الأفكار والأفهام، لمرتاد حال الإمام، وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، وهذا يفيد أن التاريخ الذي كتبه يشتمل على أمرين: الحديث عن حال الإمام، والحديث عن غزوات أنصار الدعوة السلفية، وما هو موجود فعلًا ينطبق على هذين الأمرين.

لقد كان اقتناع ابن غنام بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب واضحًا كل الوضوح، وكان تقديره لصاحبها ولمن ناصروها بينًا كل البيان، وكان الصراع بين أنصارها وخصومها - خلال الفترة التي تناولها تاريخه عنيفًا كل العنف، فعند الحديث عن تاريخه لابد من أخذ كل هذه الأمور بعين الاعتبار، لكي يُحدد مدى تأثيرها على كتابته، وهذا التحديد سيرد الحديث عنه فيما بعد.

النقطة الثانية التي يحسن أن يُشار إليها في الكلام عن تاريخ ابن غنام: هي محتوياته: يتكون هذا التاريخ من جزأين، اشتمل الجزء الأول منهما على خمسة فصول، تحدث في الفصل الأول عن الأوضاع الدينية - وإلى حد ما السياسية- في نجد والإحساء وبعض البلدان الأخرى، وذلك قبيل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وتحدث في الفصل الثاني عن حياة الشيخ محمد، أما الفصل الثالث فاشتمل على بعض الرسائل التي أرسلها الشيخ إلى عدد من قادة البلدان والشخصيات، وأما الفصل الرابع فحوى شيئًا من الأسئلة التي وُجهت إلى الشيخ وأجوبته عنها، وأما الفصل الخامس فقد ورد فيه تفسير الشيخ لبعض سور القرآن وآياته.

ويبدأ الجزء الثاني من تاريخ ابن غنام بمواصلة الحديث عن حياة الشيخ محمد الذي أورده في الفصل الثاني من الجزء الأول، مفصلًا الظروف التي أدت إلى انتقاله من العيينة، حيث بدأ تطبيق دعوته، ثم إلى الدرعية التي أصبحت قاعدة الدولة المناصرة لتلك الدعوة، وبعد ذلك يبدأ الحديث عن الأعمال العسكرية - أو الغزوات - لتلك الدولة، ابتداءً من عام ١١٥٩هـ.

بدأ ابن غنام حديثه عن الأوضاع الدينية بإعطاء صورة عنها بقوله:

«كان غالب الناس في زمانه (أي زمان الشيخ محمد) متضمخين بالأرجاس، متلطخين بوضر الأنجاس، حتى انهمكوا في الشرك بعد حلول السنة المطهرة بالأرماس. فعمدوا إلى عبادة الأوثان والصالحين، وخلعوا ربقة التوحيد والدين، فجدوا في الاستعانة بهم في النوازل والحوادث، والخطوب المعضلة والكوارث».

ثم أعطى تفصيلات لما كان يُمارس في إقليم العارض النجدي بالذات، وفي مدن الحجاز ومصر واليمن والشام والعراق والقطيف، وتلك التفصيلات التي

أوردها تدل دلالة واضحة على جهل عظيم بأمور الدين، وتدهور كبير في تفكير من يقومون بها، عقيدة وممارسة.

وبعد ذلك أورد أربع فوائد مهمة، وقد ضمن الفائدة الثالثة منها: قصيدة من ثلاثة وستين بيتًا للأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني مطلعها:

أما آن عما أنت فيه متابُ وهل لك من بعد البعاد إيابُ

ومما أورده الصنعاني في قصيدته قوله:

نسائل من دار الأراضي سياحة عسى بلدة فيها هدى وصوابُ
فيخبر كلٌ عن قبائح ما رأى وليس لأهليها يكون متابُ
لأنهم عدوا قبائح فعلهم محاسنَ يُرجى عندهن ثوابُ
كقومٍ عراةٍ في ذرا مصر ما علا على عورة منهم هناك ثيابُ
يدورون فيها كاشفين لعورة توتر هذا لا يُقال كذابُ
يعدونهم في مصر فضلاءهم دعاؤهمُ فيما يرون مجابُ
وفيها وفيها كلُ ما لا يعده لسانٌ ولا يدنو إليه خطابُ
وفي كل مصرٍ مثل مصرَ وإنما لكلٍ مسمّى والجميع ذئابُ

أما الفصل الثاني من الجزء الأول فعنوانه: نسب الشيخ ومبدأ أمره، وما جرى عليه في قيامه بتلك الدعوة من أهل مصره، وما صدمه به علماء عصره. وحديث المؤلف فيه هو أول سجل عن حياة الشيخ محمد، نسبًا، ومولدًا، ودراسة، وأسفارًا في طلب العلم، وبداية لدعوته في نجد، إلى استقراره في العيينة، مفصلًا ما قام به العلماء المعارضون له من نشاط ضده، وهو النشاط الذي كانت له آثاره على مواقف الأمراء منه، وقد ضمّن الفصل وقفات سماها مهمات، تحدث فيها عن كيفية تعامل الشيخ محمد مع خصومه، وما ينبغي أن يتحلى به الداعية، كما ضمّنه رأي الشيخ في التقليد الممنوع والمباح، ومما

أورده فيه: القصيدة الدالية المشهورة التي أرسلها الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب يثني فيها عليه، وتتألف القصيدة من خمسة وسبعين بيتًا استهلها بقوله:

سلامي على نجدٍ ومن حل في نجد — وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي
لقد صدرت من سفح صنعا سقى الحيا — رُباها وحياها بقهقهة الرعد
سرت من أسيرٍ يُنشد الريح إن سرت — ألا يا صَبا نجد متى هجت من نجد
يذكرني مسراك نجدًا وأهله — لقد زادني مسراك وجدًا على وجد
قفي واسألي عن عالم حل سوْحها — به يهتدي من ضل عن منهج الرشد
محمد الهادي لسنة أحمد — فيا حبذا الهادي ويا حبذا المهدي

ومنها:

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه — يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي
وينشر جهرًا ما طوى كلُ جاهل — ومبتدع منه فوافق ما عندي

ومما أورده في الفصل الثاني - أيضًا -: رسالة الشيخ محمد إلى العالم الأحسائي عبدالله بن محمد بن عبداللطيف، لائمًا له على اشتراكه مع خصومه في الكتابة ضده، وبخاصة أن ابن عبداللطيف - كما قال الشيخ محمد - في رسالته: قد نشر الله له من الذكر الجميل وأنزل في قلوب عباده له من المحبة ما لم يؤته كثيرًا من الناس.

ومع أن أكثر عبارات الرسالة توحي بأن الشيخ محمد لم يكن مؤملًا كثيرًا في إقناع الشيخ ابن عبداللطيف، إلا أنه لم يترك وسيلة يظن أنها تؤثر فيه إلا اتبعها، إذ قال: «ما أحسنك لو تكون في آخر هذا الزمان فاروقًا لدين الله؛ كعمر رضي الله عنه في أوله».

وأما في الفصل الثالث من الجزء الأول من تاريخ ابن غنام فقد أورد رسائل بعثها الشيخ محمد إلى بعض البلدان والشخصيات، ولهذه الرسائل أهمية تاريخية كبيرة؛ لما يمكن أن يُستدل بها على شخصية الشيخ، والظروف المحيطة بدعوته وبالدولة السعودية التي قامت على أساسها.

ومن المحتمل جدًا أنه لو لم يقم ابن غنام بتدوين تلك الرسائل لضاعت، لكن تدوينه لها أمدنا بثروة تاريخية كبيرة.

ولقد أورد ابن غنام في الفصل الرابع من الجزء الأول من تاريخه أجوبة الشيخ على أسئلة وردت إليه، بعضها كان يُراد منها إيضاح مسألة من مسائل الدين، عقيدة وشريعة، وبعضها كان يُراد منه إيضاحٌ لما يدعو إليه الشيخ، وما يشاع عنه، ومن النوع الأخير رسالة أجاب فيها عن سؤال كان قد وجهه إليه حاكم الكويت الذي لم يُحدد اسمه، وقد فصّلت الحديث عن هذه الرسالة، ومدلولاتها التاريخية في كتابي «العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت»(١).

وأتى الفصل الخامس والأخير من الجزء الأول من تاريخ ابن غنام إيرادًا لتفسير الشيخ محمد سورًا وآيات من القرآن الكريم، ومما له دلالة تاريخية بالذات من هذا التفسير تفسيره لسورة الفاتحة؛ ذلك أن تفسيره لها كان بناءً على التماس بعثه عبدالعزيز بن محمد بن سعود من الدرعية إلى الشيخ وهو مازال في

---

(١) (ص ٨٣ - ٨٧). قلت: والدكتور يميل إلى أنه عبدالله بن صباح، الحاكم الثاني للكويت. وتُنظر رسالة «نص وثائقي نادر»؛ للشيخ محمد الشيباني، ورسالة «أمراء وعلماء من الكويت على عقيدة السلف»؛ للشيخ دغش العجمي (ص ٣٤ - ٣٥) لمعرفة ما قيل حول هُوية من أُرسلت إليه رسالة الشيخ محمد.

العيينة، وهذا يدل على أن عبدالعزيز - ابن الأمير محمد بن سعود- كان على صلة بالشيخ، واقتناع بدعوته، قبل أن ينتقل إلى الدرعية ويتبايع مع أميرها محمد بن سعود سنة ١١٥٧هـ.

على أن الجزء الثاني من تاريخ ابن غنام هو الأقرب إلى منهجية الرصد التاريخي؛ إذ دوَّن فيه الأحداث سنة سنة، ومع أن العنوان العام لتاريخه قد اشتمل على مدلول هذا الجزء، فإنه جعل له عنوانًا فرعيًا هو: «كتاب الغزوات البيانية، والفتوحات الربانية، وذكر السبب الذي حمل على ذلك»، وقد استهله بمواصلة الحديث عن نشاط الشيخ محمد بن عبدالوهاب في العيينة، وردود الفعل لتطبيقه فيها ما كان يدعو إليه، وهي الردود التي أدت إلى انتقاله منها إلى الدرعية، ثم تحدث عن نشاطه في السنتين الأوليين بعد استقراره في موطنه الجديد؛ وذلك قبل أن يدخل أنصار دعوته مع خصومهم في نزع مسلح، وبعد هذا أخذ يسجل حوادث هذا النزاع، وما واكبه من نشاط سياسي أديا إلى ما هو معروف في التاريخ العام للمنطقة، من تمكن أولئك الأنصار، بقيادة آل سعود، من توحيدها.

ولقد توقف ما هو متوافر في أيدي الباحثين الآن من تاريخ ابن غنام، مطبوعًا ومخطوطًا عند حوادث عام ١٢١٢هـ، ومن المرجح جدًا أن هناك جزءًا متممًا لهذا التاريخ، وهو الجزء الخاص بتدوين الحوادث حتى وفاة مؤلفه عام ١٢٢٥هـ، ذلك أنه من غير المحتمل أن يُهمل مؤلفه تدوين حوادث مهمة جدًا؛ كغزوة علي باشا مساعد والي بغداد العثماني للأحساء عام ١٢١٣هـ، وهجوم السعوديين على كربلاء عام ١٢١٦هـ، واغتيال الحاكم السعودي عبدالعزيز بن محمد، على يد أحد العراقيين عام ١٢١٨هـ، وتوحيد السعوديين لعسير والحجاز وجازان.

على أن شيخنا حمد الجاسر رحمه الله قال - في كلامه عن تاريخ ابن غنام - «وقد عُثر على تكملة لتاريخ الشيخ حسين بن غنام وصلت إلى الخزانة السعودية في الرياض وقت نشر تاريخ ابن بشر لأول مرة؛ أي سنة ١٣٤٩هـ، ويظهر أن احتواء تاريخ ابن بشر على جل ما في التكملة، وأن أسلوبها مما لا يتلاءم مع أذواق كثير من القراء في هذا العهد؛ للسجع الممل، وأن تاريخ ابن غنام سبق نشره، وليس هناك كبير فائدة في هذه التكملة لكي يعاد طبع التاريخ كاملًا، هذه الأسباب حالت دون نشر تلك التكملة، وقد وصلت إلى مكتبة الأستاذ رشدي ملحس، وهو الذي حدثني عنها»(١).

والكلام السابق يمكن أن يُلحظ عليه أمران:

الأول: أن الجزء الأول من تاريخ ابن بشر سبق أن نُشر في بغداد سنة ١٣٣١هـ، لكنه طبع بجزأيه أول مرة في مكة سنة ١٣٤٩هـ.

الثاني: أن ما سبق نشره من تاريخ ابن غنام هو المتداول المنتهي بحوادث سنة ١٢١٢هـ، وحوادث الثلاث عشرة سنة التي بعدها كانت مهمة جدًا - كما سبق أن ذُكر -، وحديث ابن غنام - المصدر الأول لتاريخ الدولة السعودية الأولى - أهم من حديث من أتوا بعده؛ كابن بشر، فالفائدة من نشر تكملة تاريخه واضحة كل الوضوح.

ومن الواضح جدًا أن ابن بشر قد اطلع على تاريخ ابن غنام؛ لأن مقارنة كتابه بما ذكره سلفه تؤكد اعتماده الكبير عليه في تفصيلات الحوادث التي أوردها ذلك السلف، بل إنه نقل عنه قليلًا من العبارات نقلًا حرفيًا، وإن كان لم يذكر هذا النقل وذلك الاعتماد، واكتفى بالقول: إنه وجد ترسيمات للوقائع لابن

(١) مجلة العرب، ربيع الأول ١٣٩١هـ ص ٧٩٣.

سلوم إلى قرب موت عبدالعزيز بن محمد بن سعود، ثم وجد ترسيمات لغيره أحسن من رسمه متصلة به. ومن المعروف أن اغتيال عبدالعزيز كان سنة ١٢١٨هـ، وما دام الموجود الآن من تاريخ ابن غنام توقف عند حوادث سنة ١٢١٢هـ، فإنه قد توقف فعلًا قرب وفاة عبدالعزيز، وعلى هذا؛ فإن تكملته كانت على الأرجح مفقودة في عهد ابن بشر المتوفى سنة ١٢٩٠هـ أيضًا، أو على الأقل كانت مفقودة بالنسبة لهذا المؤرخ.

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فماذا عن هذا المتوافر من تاريخ ابن غنام.

تتفق مخطوطات هذا التاريخ بانتهاء كل واحدة منها بحديث مؤلفها عن أحداث سنة ١٢١٢هـ، لكن بعضها ينتهي بنهاية مبتورة؛ إذ آخرها صدر من بيت شعر دون إكماله بقيته، وبعضها ينتهي نهاية غير مبتورة؛ وذلك باستكمال الكلام عن أحداث تلك السنة كلها.

ولقد طُبع تاريخ ابن غنام أول مرة في بومبي، ثم طُبع مرة ثانية في القاهرة سنة ١٣٦٨هـ، وهي الطبعة التي تمت على نفقة الشيخ عبدالمحسن البابطين، وينطبق ما فيها على ما في المخطوطات التي نهايتها مبتورة.

ولقد صدرت لهذا التاريخ طبعة أخرى بعنوان «تاريخ نجد للشيخ الإمام حسين ابن غنام»، حرره وحققه الدكتور ناصر الدين الأسد، وقيل في صفحة الغلاف: قابله على الأصل: عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الذي كتب له تقديمًا سنة ١٣٨٠هـ، والحقيقة أنه وقع اجتهادان في هذه الطبعة؛ الأول قد يكون في محله؛ وهو إعادة صياغة كتابته، بحيث جُرد من السجع المتكلف، وحُذفت بعض الجمل المترادفة، والثاني اجتهاد في غير محله؛ وهو إضافة معلومات لم يوردها ابن غنام، وإنما أُخذت من غيره؛ وبخاصة تاريخ ابن بشر، وهذا العمل مضلٌ للقارئ؛ إذ سيظن أن كل المعلومات الموجودة في هذه الطبعة

مما دونه ابن غنام. وهذا غير صحيح، ولهذا فإنه لا يصح الاعتماد عليها.

وإذا أراد الباحث أن يتكلم عن أسلوب ابن غنام في كتابته لتاريخه، وجد أن هذا التاريخ يشتمل على ما أورده من كلام لغيره؛ مثل رسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأجوبته عن أسئلة، وتفسيره لسور وآيات من القرآن الكريم، ومثل إيراده لكلام علماء آخرين؛ كابن تيمية والشيخ حمد بن معمر، وهذا كله أورده حرفيًا، وليس له فيه إلا فضيلة إيراده؛ وهو بصفة عامة المكون للجزء الأول.

ويشتمل على ما هو من كلامه؛ وهذا يُكوِّن بشكل أساس: الجزء الثاني من تاريخه، وهو الذي ركز فيه على ذكر الأحداث العسكرية أو الغزوات، وقد كتبه ابن غنام بأسلوب مسجوع سجعًا متكلفًا، إلى درجة أنه - في حالات نادرة - ضحى بقواعد اللغة العربية التي كان يدرسها لصالح السجع! ولم يكن المؤرخ الوحيد في زمنه ومنطقته الذي اتبع ذلك الأسلوب، فقد جاء أسلوب عثمان بن سند في كتابه «مطالع السعود» مشابهًا لأسلوب ابن غنام.

وربما كان اتباع ابن غنام لأسلوب السجع محاولة منه لإظهار براعته اللغوية كما قال شيخنا حمد الجاسر، ومن رأى رأيه، وربما كان يرى أن السجع أكثر قبولًا لدى القارئ في تلك الفترة، وبالتالي أعمق تأثيرًا في نفسه؛ ذلك أن ابن غنام كان يعيش في جو مشحون بالتوتر والصراع بين أنصار دعوة الشيخ محمد وخصومهم، وهو باتباعه ذلك الأسلوب يحمل سلاح الكلمة بجانب أولئك الأنصار.

أما المنهج الذي اتبعه ابن غنام في كتابته؛ فإن الجزء الأول منه جاء في مجمله - كما سبق أن ذُكر - إيرادًا لكلام غيره، وبالتالي فإن منهجه فيه ليس مما ينبغي التوقف عنده، ولكن منهجه حقيقة يتجلى في الجزء الثاني، والمنهج الذي اتبعه في هذا الجزء هو المنهج المتبع عند بعض مؤرخي الإسلام في قرون

ماضية؛ وهو تدوين الحوادث سنة سنة. وبما أن الفترة التي كتب تاريخها كانت الصبغة الأساسية فيها الأعمال العسكرية؛ دفاعًا عن الدولة السعودية القائمة على أساس دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية، أو هجومًا ضد خصومها، فإن الجزء الثاني جاء سجلًا لتلك الأعمال، وما واكبها من مواقف سياسية.

على أنه قد ضمّن هذا الجزء - في مواضع قليلة - أمورًا فكرية دينية، وقصائد بمناسبة أحداث مهمة، فمن القسم الأول: رد الشيخ محمد على ما كتبه أخوه سليمان ضده وقد صدر هذا الرد فيما بعد بعنوان «مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد»، ومنه: أجوبة الشيخ حمد بن معمر عن أسئلة علماء مكة، عندما أرسله قادة الدرعية إلى هناك بطلب من الشريف غالب؛ لمناقشة أولئك العلماء، وقد صدرت هذه الأجوبة فيما بعد بعنوان: «الفواكه العذاب فيمن لمن يحكم السنة والكتاب».

ومن الواضح أن القصائد الموردة في هذا الجزء إنما قيلت في الأحداث المهمة جدًا في نظر ابن غنام، سواء كانت صدىً لانتصارٍ حققه أتباع الدولة السعودية، أو لهزيمة مؤلمة حلت بهم، ومن تلك القصائد: قصيدته بمناسبة غزو صاحب نجران لنجد، وهزيمته لعبدالعزيز بن محمد سعود في الحائر، ومطلعها:

عين جودي بواكفٍ هتان واسكبي عبرة على الأجفان

وقصيدته بمناسبة هجوم زعيم بني خالد على الدرعية، ومطلعها:

نفوس الورى إلا القليل ركونها إلى الغي لا يلفي لدينٍ حنينها

وقصيدته بمناسبة دخول الرياض تحت الحكم السعودي، ومطلعها:

كشف الحقُ ظُلمةَ الإغلاس ومحى الدينُ جُملةَ الأرجاس

وقصيدته في رثاء الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومطلعها:

إلى الله في كشف الشدائد نفزعُ وليس إلى غير المهيمن مفزعُ

وقصيدته التي رد فيها على قصيدة ابن فيروز، ومطلعها:

على وجهها الموسوم بالشؤم قد خُطا عروسٌ هوىً ممقوتة زارت الشطا

وقصيدته التي هنأ بها سعود بن عبدالعزيز عند قدومه الأحساء، بعد مقتل زعيم المنتفق ثويني بن عبدالله، مطلعها:

تلألأ نور الحق وانصدع الفجرُ وديجور ليل الشرك مزقه الظُهرُ

وعدد أبياتها ١١٨ بيتًا.

وإذا أخذ ما سبق في الحسبان؛ فإن المرء ينبغي ألا يهتم بالأسلوب أو العرض الذي دون به ابن غنام الحوادث، وإنما ينظر إلى مضمون الأحداث التي دونها، ومن قرأ تاريخه يجد أنه يذكر هزائم أتباع الدولة السعودية تمامًا، كما يذكر انتصاراتهم، ويذكر أسماء من قُتلوا منهم، كما يذكر أسماء من قُتلوا من خصومهم ما وجد إلى معرفتها سبيلًا، والمهم للباحث - في نظري - هو النظر إلى المحتوى ذاته، لا إلى أسلوب عرضه. وبما أن تاريخ ابن غنام أول سجل لتفاصيل حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومسيرة دعوته، وأخبار الدولة السعودية الأولى التي ناصرتها، فإنه من الممكن أن يُعد - بإنصاف - رائدًا لمؤرخي نجد في الفترة التي تناول أحداثها، والله ولي التوفيق.

